الخلفيّات الفكريّة للتعايش والسلام في الثقافة الإسلاميّة

الدكتور مصطفى حضران[1]

خلاصة المقالة:

الإسلام دين عالمي يتّجه برسالته إلى البشريّة كلّها؛ ما يجعل الثقافة الإسلاميّة منفتحة على حضارات الأمم ومتجاوبة مع ثقافة الشعوب الأخرى، ويؤكّد أنّ الإسلام يرفض مقولة «المركزيّة الحضاريّة» التي تهدف إلى تنميط الشعوب والحضارات في قالب ثقافيّ ومعرفيّ واحد، بل يؤسّس «المنتدى الحضاريّ العالميّ» أو ما يصطلح عليه بالمشترك الإنسانيّ. فالإسلام دين التعايش السلميّ؛ لكونه أوّل من عرفه، وأرسى مرتكزاته بين المسلمين وغير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى، دون أيّ تمييز أو تفضيل بينهم، بسبب لغاتهم أو أجناسهم أو طقوسهم الدينيّة، حيث ساوى بينهم جميعًا في الحقوق والواجبات.

وبهذا تمثّل قيمة التعايش بين الثقافات الإنسانيّة مسارًا حضاريًّا، ينطلق من خلاله المجتمع الإنسانيّ في صفٍّ واحدٍ للتكامل والرقيّ خدمة للبشريّة جمعاء. فقيمة التعايش ترفض رفضًا قاطعًا كلّ ما من شأنه أن يُذكي روح التعصّب والعنف والصراع والإقصاء.

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من المغرب.

مصطلحات مفتاحية:

الضروريّات الخمس،الأديان، صدام الحضارات،المركزيّة الحضاريّة، التعايش، الحوار، التعاون، التعارف، الأسرة الدوليّة.

مقدّمة:

في ظلّ التراجع والضعف الذي تعيشه الأمّة اليوم،والكلالة الحضاريّة، وانحسار حركة الأمّـة في مسرح الحياة، وأمـام الهجوم الكاسح الذي يشنّه الآخر على أفكارنا وقيمنا، والقصف الفكريّ والعلميّ الذي يشوّش على المبادئ ويشكّك في الأسس والخصائص المميّزة لهذه الأمّة، بات الأمرملحًّا لطرح موضوع التعايش والسلام في الثقافة الإسلاميّة؛ رفعًا لكلّ لبس، وتوضيحًا للمفاهيم الشرعيّة التي تُنزع من سياقها القرآني وتُستعمل بشكل مخالف لمقاصد القرآن وغاياته الكبرى حين شرّعها. فمثلًا الجهاد؛ باعتباره مفهومًا شرعيًّا له ضوابطه وشروطه، يمارَس عليه التعسّف اليوم بشكل مضاعف، سواء من الجهات التي ترفعه؛ كشعار لأفعالها غير المبرّرة بمنطق الشرع ذاته، أو من يربط هذا المفهوم بـالإرهـاب الدوليّ بشكل فيه كثير من الظلم والجور، أو من يدّعي أنّ الإسلام إنّما هو دعوة للموت والقتال والكراهية! غير أنّ القارئ المنصف لمقاصد القرآن وغاياته الكبرى، يجده أنكر أشدّ الإنكار استباحة الدماء والخوض فيها، فتوعّد كلّ من يقترف هذا الجرم بأشدّ العقوبات: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]. فصيانة الأرواح وحماية الأنفس من الضروريّات الخمس التي أقرّتها الشريعة الإسلاميّة، فبدونها لا تستقيم الحياة. لهذا تسعى هذه المقالةإلى الوقوف عند الخلفيّة الثقافيّة الإسلاميّة المؤطّرة لمقولة الأمن والتعايش بين الناس كافّة.

(1) سورة المائدة، الآية 32.

إنّ الأمن مقصد من مقاصد الشريعة، فقد حصر العلماء المقاصد الضروريّة في حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وصَرَّح الماورديّ بأنَّ «صلاح الدنيا وانتظام أمرها بستّة أشياء، منها: أمنٌ عامّ تطمئنّ إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويَسْكُن فيه البريء، ويأنس به الضعيف»[1].

فالسلامُ اسم من أسماء الله، وكلّما صدر عنه فيه الأمن والسلام. ولقد كانت بعثة الأنبياء والرُّسُل غايتها إقامة الأمن والسلام في الأرض، بعد أن مُلئت ظلمًا وجورًا.

وختم الله -تعالى- سلسلة أنبيائه ورسله بمحمّد ﷺ نبيِّ الأمن والسلام، حيث جاء رحمة للناس كافّة، قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

فلا عجب إذا كانت رسالته رحمة للعالمين، وكانت تعاليم هذه الرسالة ينبوعًا جيّاشًا بكلّ ما تحتاج إليه الإنسانيّة؛ من حبّ وأمن ومودّة. فحياته ﷺ كلّها دعوة للتحابب والسلام والحياة. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا. أوَلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[3].

وعلى عكس كثير من التصوّرات والتجمّعات والهيئات؛ سواء الوطنيّة أم الدوليّة التي ترفع شعار الأمن والسلام العالميَّين، وتتفنّن في إخراج القوانين التي تدّعي حماية الناس وتحقيق أمنهم وسلامتهم على مختلف ألوانهم وأجناسهم؛ لكنّ الواقع المعيش اليوم يكذّب ذلك، والدليل على ذلك ما نشهده من تدمير وحروب وقتل للأطفال والنساء والشيوخ وانتهاك للحرمات، أمام مرأى ومسمع من المنتظم الدوليّ، وفي أحيان كثيرة ترتكب باسم حقوق الإنسان واستتباب الأمن والسلام.

(1) الماوردي، أبو الحسن: عليّ بن محمّد بن حبيب البصري: أدب الدنيا والدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1407هـ.ق/1987م، ص119.

(2) سورة الأنبياء، الآية 107.

(3) النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، لا.ط، بيروت، دار الفكر، لا.ت، ج1، ص53.

وبهذا، فالأهمّ من القوانين مع كثرتها، والشعارات البرّاقة، هو الاطمئنان إلى هذه القوانين والثقة الكاملة في واضعيها؛ فالناس لا تريد أقوالًا وشعارات، بل تريد أن تعيش الأمن وتراه يمشي بين دروب مدنها وأزقّة أحيائها.

وللتعامل مع الحالة المرَضيّة التي تعاني منها العلاقة بين الناس على اختلاف دياناتهم ولغاتهم وثقافتهم، نجد الأمر لا يخرج عن مقاربتين:

فالمقاربة الأولى «سلبيّة»؛ تتمثّل في تغليب منطق القوّة والعنف، والعمل على إخضاع الشعوب وإذلالها، ولهذا التوجّه خلفيّات ثقافيّة تؤطّره وتغذّيه، ونستحضر هنا عدّة كتابات؛ مثل: صدام الحضارات، ونهاية التاريخ وموت الإله، ونهاية الإنسان، فكلّ هذه الكتابات تجسّد منطق الصراع وفلسفة التصادم التي تحكم علاقة الحضارة الغربيّة مع الآخر.

ومن الواضح أنّ قسمًا من الثقافة الغربيّة الحديثة يوظّف منطق التصادم وآليّاته وأدواته،في صلته مع الآخر؛ وذلك من أجل تحقيق مصالحه، واستمرار هيمنته ومركزيّته. وهذا المنطق التصادميّ هو الذي ينعكس جليًّا في كثير من الكتابات اليوم، ونشير -هنا- إلى مقالة هنتجتون الموسومة بصدام الحضارات والتي أكّد من خلالها أنّ الصراع أمر محتوم؛ إنّما بين الأفكار والثقافات المتعدّدة.

وأمّا المقاربة الثانية فـ «إيجابية»؛ وتتمثّل في الدعوة إلى التعايش والحوار بين الحضارات والأديان والثقافات؛ بحثًا عن قواسم مشتركة تمكّن من تحقيق التفاهم المشترك، والاحترام المتبادل، والتعايش بسلام بين أمم الأرض وشعوبها كافّة.

وتأتي الثقافة الإسلاميّة في مقدّمة الثقافات والأديان التي تدعو إلى الحوار والتعايش بين الناس كافّة. والذي يطّلع بأمانة على الثقافة الإسلاميّة، سيدرك كيف أنّ القرآن الكريم أسّس لرؤية عالميّة متوازنة ومتكاملة في الحوار والتعايش والتفاعل بين الناس.

أوّلًا: الإسلام وثقافة التعارف والتعايش:

يرى الإسلام أنّ الأساس في نشر الوعي الحضاري يكمن في قيمة التعارف، وإفشاء خلق التعاون والتعايش بين بني النشر جميعًا،من دون اعتبار لعامل اللون أو الجنس أو المعتقد: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة الجامعة، تقرّر حقيقة وجوديّة في غاية الأهمّيّة، وتنبّه الإنسانيّة إليها لتعي دورها في هذا الوجود، وهي التأكيد على وحدة الأصل الإنسانيّ؛ فالناس جميعًا في المنظور الإسلامي أسرة واحدة،بالرغم من اختلاف المعتقدات وتعدّد الألسن وتباعد الأوطان، ومن ثمّ جاء التنبيه الإلهيّ للإنسانيّة بأنّه مع هذا الاختلاف وجب التعارف والتعايش، لا التباغض والتدابر، ووجب أن يسود بين الأسرة الدوليّة المحبّة والإخاء والودّ، كما يسود أفراد الأسرة الصغيرة.والتعدّد والتنوّع الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو حقيقة موضوعيّة أقرّها الإسلام ورتّب عليها التزامًاأخلاقيًّا يتمثّل في تحقيق تواصل أكثر.

فهذه الآية تؤسّس لمجتمع إنساني عالميّ تسوده أخلاق التواصل والتعارف والتعاون، وتسقط كلّ دعوات العصبيّة المقيتة التي تجعل الإنسانيّة عبارة عن جُزُر متناثرة هنا وهناك، كلّ جزيرة ترتاب ممّا عند الأخرى! كما تُبيّن هذه الآية خُلُق الاعتراف بالآخر، وإبداء الرغبة في التعامل والتعاون معه؛ خدمة للبشريّة جمعاء، دون النزوح إلى الإقصاء والتجاوز.

فالتصوّر الإسلامي يُسقط كلّ موازين التفاضل بين الناس، المبنيّة على اعتبارات عرقيّة أو دينيّة أو لغويّة؛ كما يدّعي بعضهم اليوم؛ فمنهم من يرى أنّهم شعب الله المختار، ومنهم من يرى أنّ عرقه أرقى العروق،

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

وهكذا تفصَّل أوصال الإنسانيّة؛ بحسب رغبات دعاة الحرب والقطيعة والتنافر، الذين لا يحلو لهم أن تتواصل البشريّة وتتعاون فيما بينها.

يقول سيّد قطب في هذه الآية: إن الله «يهتف بالإنسانيّة جميعها يا أيّها المختلفون أجناسًا وألوانًا، المتفرّقون شعوبًا وقبائل إنّكم من أصل واحد، فلا تختلفوا، ولا تتفرّقوا، ولا تتخاصموا، ويُطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبًا وقبائل؛ إنّها ليست التناحر والخصام، إنّماهي التعارف والوئام. فأمّا اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوّع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجات. وليس للّون والجنس واللّغة والوطن وسائر هذه المعاني من حسابٍ في ميزان الله؛ إنّما هنالك ميزان واحد تتحدّد به القيم، ويعرف به فضل الناس، وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة،وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان»[1].

ثانيًا: أسس التعايش في الثقافة الإسلاميّة:

يوجد مجموعة من الأسس التي بيّنها الإسلام وجعلها منطلقًا في التعايش مع الآخر؛ وهي:

1. التكريم الإلهيّ للإنسان:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[2]. فالتكريم الإلهي للإنسان؛ بما هو إنسان، هو تعظيم للبشريّة ورفع لشأنها، وإبطال في الوقت نفسه لكلّ التوجّهات العنصريّة والتمييزيّة بين الناس، فهذا التكريم غير مرتبط باللون والجنس والدين، وهو عامّ لكلّ البشر؛

(1)الشاذلي، إبراهيم حسين(سيّد قطب): في ظلال القرآن، ط32، القاهرة، دار الشروق، 1423هـ.ق /2003م، ج6، ص3348.

(2) سورة الإسراء، الآية 70.

لوحدتهم في حقيقة الإنسانيّة بقطع النظر عن أيّ انتماء كان.ومن هنا يستشعر الإنسان هذه القيمة والمكانة التي حباه الله -تعالى- بها؛ لهذا نجد الرسول الأكرم ﷺيصحّح سلوك بعض صحابته؛ إذ «مرّت جنازة على النبيّ ﷺفوقف لها، فقيل له إنّها جنازة يهوديّ، فقال: أليست نفسًا؟»[1]، حيث أراد القوم إدخال الاعتبار للعامل الديني؛ فإذا بالنبيّ ﷺيردّ الأمور إلى أصلها؛ وهي أنّها نفس بشريّة قبل أيّ شيء.

فالإسلام يرتّب على هذا التشريف والتكريم حقيقة منطقيّة؛ وهي تهويل قتل النفس البشريّة وتعظيمه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[2]، بل شدّد القرآن الوعيد، فجعل قتل إنسان واحد كقتل الناس أجمعين.قال تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[3].

2. الاعتراف وعدم إقصاء أهل الكتاب:

الإسلام دين سماوي خاتم ومهيمن على كلّ الديانات السابقة، ولهذا نجده يعترف بهذه الديانات وبأنبيائها وكتبها، بل أكثر من ذلك ألزم أتباعه المؤمنين بالإيمان بهذه الرسالات السماويّة، وجعل ذلك من تمام الدين والإيمان. وصفحات التاريخ تشهد بأنّه في ظلّ الحكم الإسلامي، تمكّن أتباع الديانات السابقة من أداء شعائرهم والتمتّع بحقوقهم المتنوّعة؛ كحرّيّة العقيدة، وممارسة الشعائر الدينيّة. بل لقد تجاوزت الأخلاق الإسلاميّة مجرّد الاعتراف بهم وضمان حقوقهم وصونها، إذ حثّ الإسلامُ المسلمَ على الإحسان إليهم والبرّ بهم[4]: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[5].

وعمومًا، فإنّ نظرة الإسلام إلى أهل الكتاب هي نظرة مخالفة لنظرته

(1)البخاري، محمّد بن إسماعيل: صحيح البخاري، لا.ط، بيروت، دار الفكر، 1401هـ.ق/1981م، ج2، ص87.
(2) سورة الإسراء، الآية 33.
(3) سورة المائدة، الآية 32.
(4)مع استثناء المحاربين للمسلمين والمعتدين.
(5)سورة الممتحنة، الآية 8.

لباقي الكفّار والمشركين، لهذا خصّهم ببعض الأحكام، فأباح الزواج منهم، وأكل طعامهم، وحسن مجادلتهم، وغيرها من الحقوق التي ضمنها الإسلام وأقرّها لهم.

3.**عدم الإكراه على الدين:**

تعدّ آية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1] قاعدة كبرى من قواعد الإسلام التي أسّست لخلق الإقناع والحوار، بدل الإكراه والإجبار المنافيان لعقيدة التوحيد والإخلاص التي تستوجب الطواعية والاختيار في اعتناق عقيدة الإسلام، حيث «إنّ الله -تعالى- ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنّما بناه على الاختيار، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان»[2].

ففي التصوّر الإسلاميّ الأمر موكول للإنسان ليختار معتقده بمحض إرادته، وبهذا سطّر الإسلام حرّيّة الفرد في اختيار معتقده، وجعلها صرخة مدوّية في وجه الإكراه والجبرلتحرير الإنسان من كلّ أنواع القهر والظلم؛ فقال -تعالى-: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[3].

ثالثًا: الأمن والسلام في حياة الرسول الأكرم ﷺ:

يقف الدارس لسيرة الرسول الأكرم ﷺ على أنّ حياته وتصرّفاته اليوميّة كلّها أمان ورحمة للناس كافّة؛ عدوّه قبل صديقه، فلم يكن ﷺ جبّارًا يرهب الناس، بل كان رحيمًا يشهد على ذلك كلّ من جالسه أو حادثه أو سمع منه، فيأتي الرجل وقد سبّه أوهجاه، فينتظر أن يأخذ الثأر منه، لكنّه يجد العفو والصفح منه ﷺ، ما يهدّئ من روعه وتطمئنّ له نفسه؛ مصداقًا لقوله -تعالى-: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ

(1)سورة البقرة، الآية 256.

(2)الغنّوشي، راشد: الحرّيّات العامّة في الدولة الإسلاميّة، ط1،بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1993م، ص44.

(3)سورة الكهف، الآية 29.

فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

ولقد تجلّى ذلك في كثير من المواقف نذكر منها:

1. المعاهدات النبويّة أو الحرص على السلام:

المعاهدات إنّما تبرم لإيقاف حرب، أو تجنّبها قبل أن تقع، فمن منطلقالحرص على السلم والسلام، وتحقيق الحياة الآمنة، وعدم إشعال فتيل الحروب والاقتتال،كانت معاهدات النبيّﷺوالمسلمين من بعده[2]؛ فحياته ﷺ ناطقة بأنّه كلّما توافرت الفرصة للنبيّ ﷺ لإبرام صلح، أوعقد معاهدة لإنهاء الاقتتال والدخول بالناس إلى حياة الرحمة والسلام والتعايش، استجاب لهذا النداء وثمّنه؛ فالأصل في حياة النبيّﷺهو السلام، أمّا الحرب فقد خاضها اضطرارًا واستثناءً.

وتؤكّد كتب السيرة على أنّه كلّما جنح القوم إلى السلام، وجدوا النبيّﷺ يجنح لها مهما كان الثمن والتضحية التي يقدّمهما، فلمّا عرضت قريش الصلح في الحديبية استجاب لها الرسول ﷺ مع ما في هذا الصلح من بنود مجحفة لمعسكر المسلمين، وبالرغم من رفض بعض الصحابة لهذه الشروط، واعتبارهم ذلك دنيّة في الدين، ومع ذلك أبرم النبيّ ﷺالصلح معهم وأنفذه. ومن حرصه ﷺ على تحقيق الأمن وإبعاد خطر الحرب عن المدينة، اقترح على أهل غطفان نصف ثمار المدينة، على أن يرجعوا عنها.

وكانت الأهداف العامّة والمقاصد الكبرى، التي تروم هذه المعاهدات تحقيقها، هي تثبيت حالة الأمن والسلام، وضمان حقوق المتعاهدين، والالتزام التامّ بتطبيق بنودها، واحترام حسن الجوار وضمانه، وعدم الخيانة أو التحالف مع الأعداء. فالإسلام يحرص على حالة الأمن؛ لأنّه

(1)سورة آل عمران، الآية 159.

(2) من هذه المعاهدات: معاهدة النبيّ ﷺمع يهود المدينة، ومعاهدته ﷺمع نصارى نجران، ...

في ظلّها تردّ السيوف إلى أغمادها، ويعلو صوت الدليل والبرهان والقدرة على الإقناع، فلا يبقى أمام الناس إلّا الاحتكام إلى صوت العقل، فمن يملك الحجّة والبرهان يميل الناس إليه ويؤمنون به ويتّبعونه.

2. تحكيمه في بناء الكعبة أو نشر ثقافة السلم بين العرب:

لمـّا بلغ محمّدﷺ الخامسة والثلاثين من عمره، تعرّضت الكعبة للهدم؛ بسبب سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة على الانهيار فاضطرّت قريش إلى تجديد بنائها؛ حرصًا على مكانتها، فلمّا عمدت إلى ذلك، تنازع القرشيّون فيما بينهم على من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، واستمرّ النزاع أيّامًا، واشتدّ حتّى كاد يتحوّل إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلّا أنّ أبا أميّة بن المغيرة المخزوميّ، عرض عليهم أن يحكّموا فيما شجر بينهم، أوّل داخل عليهم من باب المسجد، فارتضوه. وما شاء اللّه ألّا يكون إلّا محمّدًا ﷺ، فلمّا رأوه قالوا هذا الأمين، قد رضينا به، هذا محمّد، فلمّا انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداءً فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتّى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه، فنال بذلك شرف وضع الحجر، وجنّب العرب قتالًا محقّقًا فيما بينهم.وهذا حلّ حكيم من رجل حكيم رضيت قريش بحكمه. لقد كان النبيّﷺ مقنعًا غيره في اختياره، واستبشر القوم خيرًا بتحكيمه والفصل بينهم، ونزّلهم على حكمه الذي أشار به عليهم، ولم تجد أحدًا من القوم يرفضه أو يشكّك فيه، فنزل عليهم حكمه ومشورته بردًا وسلامًا، وبفضل هذا التصرّف النبويّ الحكيم ردّت السيوف إلى أغمادها، وجمع به اللّه -تعالى- العرب، وحقن دماءهم، بعد أن كانوا على شفير الحرب والقتال، فكان هذا الحدث قبل البعثة مؤشّرًا على حنكة النبيّﷺ، وحرصه على أن يسود السلم والسلام بين العرب.

3. الهجرة إلى الطائف أو معجزة الأمن والسلام:

تتجلّى معجزة الأمن والعفو النبويّ في أعلى صورها من خلال هذا الحدث مع سفهاء الطائف الذين آذوا النبيّ ﷺ وشتموه وأهانوه، فجعل الله -تعالى- مصيرهم رهن إشارة النبيّ ﷺ؛ بحيث كانت جبال مكّة تنتظر أمره ﷺ، فما كان منه إلّا أن قال :«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئًا، اللّهمّ اهد ثقيفًا وأتِ بهم»[1].

ولايتبيّن وجه الإعجازإلّا حين نقارنه بما فعل الأنبياء الكرام عليهم السلام حين تضرّعوا بالدعاء لربّهم أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحقّ، وانتصر لهم ربّهم -سبحانه- فقال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

4. صلح الحديبية أو الإصرار على إنفاذ السلم والأمن:

يتبيّن من خلال صلح الحديبية، إصرار النبيّ ﷺ على تحقيق السلام، وأنّه كان دائمًا يجنح للسلم إن توافرت أسبابه في أيّ وقت.فعندما قصد النبيّ ﷺ العمرة مع أصحابه في العام السادس من الهجرة، أبت قريش أن تسمح له ولأصحابه بأداء العمرة، وهذا جرم في عرف العرب، إذ كيف يُصدّ عن البيت الحرام من جاء معظّمًا له.فأسرعت قريش إلى بعث سُهَيْل بن عمرو-متحدّثًا رسميًّا باسمها-للتفاوض مع النبيّ ﷺ حول عقد الصلح، وأكّدت له أن يكون في شروط الصلح الرجوع عن مكّة عامه هذا دون عمرة، فأتاه سهيل بن عمرو، فلمّا رآه النبيّ ﷺ قال «قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»[3]، فجاء سهيل فتكلّم طويلًا، ثمّ اتّفقا على قواعد الصلح.فبالرغم من الشروط المجحفة

(1)النيسابوري، صحيح مسلم، م.س، ج5، ص181. وانظر: البخاري، صحيح البخاري، م.س، ج4، ص151.
(2)سورة العنكبوت، الآية 40.
(3)البيهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى، لا.ط، بيروت، دار الفكر، لا.ت، ج9، ص220.

لهذا الصلح، نجد النبيّ ﷺ قَبِلها، وما من طلب طلبته قريش إلّا أنفذه النبيّ ﷺ من أجل تحقيق السلم والكفّ عن الحرب، الأمر الذي حرّك نفوس بعض الصحابة الذين لم يستسيغوا هذه الشروط[1].

5. **فتح مكّة أو العفو العامّ:**

حصل فتح مكّة، وغلب الحقُّ والأمن وهُزِم الباطل والخوف، ففي ذلك اليوم لم يبادلهم النبيّ ﷺ ظلمًا بظلم، ولا إرهابًا بإرهاب، بل أحسن إلى الأعداء، وعفا عنهم، واسْتَغْفَر لهم من ظلمهم وعدوانهم، فأمر جنوده قبل أن يدخلوا مكّة بـ:

- **من دخل المسجد الحرام فهو آمن.**
- **من أغلق عليه بابه فهو آمن.**
- **من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.**
- **لا تعترضوا فارًا.**
- **لا تقتلوا من ألقى سلاحه.**

لذا منح الله-تعالى-لنبيّه ﷺ وللمؤمنين هذا الفتح العظيم بلا قتل وقتال، بل في حالة الأمن والسلام.

وفي ذلك اليوم كان الناس خائفين حين تمّ النصر والفتح، عندما اجتمعوا إليه قرب الكعبة ينتظرون حكمه فيهم، فأعلن العفو العامّ، فقال الرسول ﷺ: «**ما تظنّون أنّي فاعل بكم؟ فقالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال الرسول ﷺ:اذهبوا فأنتم الطلقاء، وأعاد قول يوسف عليه السلام: لا تثريب عليكم اليوم**»[2].

(1)انظر: النيسابوري، صحيح مسلم، م.س، ج5، ص175.

(2)ابن قيّم الجوزيّة، شمس الدين: زاد المعاد في هدي خير العباد، ط27، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1994م، ج3، ص408.

6.حجّة الوداع أو إعلان السلام العالمي:

كانت حجّة الوداع بمثابة إعلان نظام الأمن والسلم العالميّين بعد سنتين من فتح مكّة، فقام النبيّ ﷺ خطيبًا في حجّة الوداع فقال: «إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألَا كلّ شيء من أمر الجاهليّة تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهليّة موضوعة، وإنَّ أوّلَ دم أضع من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث- وكان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هُذَيْل-وربا الجاهليّة موضوع، وأوّل ربًا أضع من ربانا ربا عبّاس بن عبدالمطّلب، فإنّه موضوع كلّه»[1].

وبهذا وقبل أن يلتحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، ثبّت الأمن العالميّ، وبيّن حرمة دم الإنسان؛ مهما كان دينه ولونه وجنسه، ونجد النبيّ ﷺ يحرّم ويشجب كلّ أشكال استغلال الناس في كلّ صغيرة وكبيرة.

خاتمة:

إنّ الإسلام دين التعايش السلميّ؛ وهو يحمل في طيّاته أكمل أطروحة وأتمّها للتعايش الحضاريّ بين الثقافات الإنسانيّة المتنوّعة؛ بحيث ينطلق المجتمع الإنسانيّ من خلاله في صفٍّ واحدٍ إلى التكامل والرقيّ خدمة للبشريّة جمعاء.

وقد جسّد رسول الله ﷺ في حياته الشريفة هذه القيمة النبيلة والسمحة في علاقته مع الآخرين؛ فكانت تعاليم رسالته ينبوعًا جيّاشًا بكلّ ما تحتاج إليه الإنسانيّة؛ من حبّوأمن ومودّة. وحياته كلّها دعوة للتحابب والسلام والحياة.

ما أحوجنا اليوم إلى الاستمداد من السيرة العطرة للنبيّ ﷺ في علاقته مع الآخرين، ولا سيّما في ظلّ الصورة المشوّهة عن الإسلام في نظر الآخر، والصورة الخاطئة التي يقدّمها بعض المسلمين عن الإسلام ورسوله ﷺ.

(1)النيسابوري، صحيح مسلم، م.س، ج4، ص41.